محمد عبد الرحمن علال

بين أحضان النية

بين احضان النية 1

وقف وسط جمع غفير من المعلمين كما دأب الناس على تسميتهم بذلك انذاك ،ينتظر ان ينادى باسمه فيتسلم ورقة تعيينه كمدرس جديد للاطفال الصغار ، كل الاعناق كانت تشرئب الى أعلى ذلك الدرج في تلك البناية الجميلة وقد وقف هناك رجل نحيف الجسم، طويل القامة ،تبدو على أسارير وجهه صرامة كما لو كان سيوجه امرا عسكريا. سمع اسمه أخيرا بين كثير من الأسماء ، تقدم ، صعد درجات السلم وفي ذهنه حيرة تكاد تخنقه.خاف ان يلقى به في مكان ناء موحش من تلك الأماكن التي كان يسمع عنها نقلا عمن سبقوه في الحرفة.ناوله الرجل ورقة تعيينه ،لفها بين اصبعيه مسرعا دون ان ينظر اليها، مرتعدا كان وهو يتقدم خارجا يغادر الزحمة،استوقفه توقف حركة المرور لفترات متقطعة جراء الزحام الطارئ.خاطبه احدهم :"" فين عينوك؟اين تم تعيينك؟" اجاب بسرعة دون ان يتحقق من وجه مخاطبه" لست ادري بعد ،لا اريد ان اعرف الان "" ابتعد قليلا عن ذلك المكان،حتى اذا بلغ الطوار الأخر من ذلك الشارع الطويل العريض الحي بحركة العربات عليه ،فتح الورقة ثم صار يتفحصها بعين ثاقبة وبال مضطرب وقال في نفسه مرددا :"" فين جات هذي ؟ فين جات هذي؟ياك ما

شي قفار ؟"" ما زال يتأمل الورقة منتظرا صديقه "بلقاسم" الذي تسلم تعيينه للتو وهاهو يغادر ذلك الطابور المكتظ؛ نظر اليه وهو يحاول ان يقطع الطريق و ناداه ""فين عطاوك ؟ فين عطاوك ؟ انا عينوني في مستكمر، عينوني في قرية مستكمر. هل تعرف موقعها على الخريطة ؟"قاطعه بلقاسم يقول وقد بدا عليه الوجوم ""لا .ثم سكت لبرهة وقال ""انا عينوني في لمريجة""انا أيضا لا اعرف اين تقع" كان ينظر الى ورقة تعيينه متمعنا، يتمتم بكلمات غير واضحة الحروف مبنى ومعنى .كان الضجر واضحا على وجهه العريض المصفر.مشيا بعد ذلك لمئات من الأمتار .يعبران شارعا هنا ودربا من دروب وجدة التي دأبا على التجوال بها أيام الدراسة في ثانوية عبدالمؤمن.كانت الأسئلة تتوارد على لسانيهما دون ان ينطقا أو ينتظرا لها جوابا. وهما على تلك الحال من الحيرة ،قال لصاحبه :" ما العمل الان يا بلقاسم ؟ هل نعود ادراجنا الى حيث جئنا الى بوعرفة ،ام نبقى ها هنا حتى يدركنا الغد؟ أصر على انتظار الجواب هذه المرة ؛ اقترح بلفاسم المبيت في الفندق تلك الليلة ،ثم إذا حل الصباح، الصباح ،شدا الرحال الى اماكن تعينهما بالتناوب يكتشفانها .تناولا عشاء خفيفا في احد المطاعم ،دجاجة محمرة مع مشروب غازي بارد يرد الروح ،توجها بعدها نحو السينما،سينما باريس . وجدا نفسيهما بعد فترة من المشي بين احضان عالم الخيال .شريط جعلهم مخرجه يسبحان بين أمواج الاضاءة وحلاوة الألوان والاصوات في تمازج عذب

.ناما تلك الليلة في الفندق ،فندق نيس.حين أطل الصباح بنور شمسه الوهاج، ركبا متن ناقلة عبرت بهما وسط المدينة ترمق عيناه الدكاكين المفتوحة بانواع السلع وتعج بالمتسوقين .كان اغلبهم من الشابات والنسوة الطاعنات في السن .كن يتمسكن ببعضهن بكف على ذراع .مازالت تلك الصور ينقلها زجاج نوافذ تلك الراحلة حتى استقامت بهما الطريق يتجهان الى قرية مستكمر النائية هناك على الطرف الايسر من الطريق الرئيسية المؤدية الى تاوريرت.توقفت بهما الناقلة عند منعطف طرقي.اشار علينا السائق بالنزول فنزلنا ."القرية على بعد اثنا عشر كيلومترا .انتبها ،ان بها قطاع طرق،انتبها ! رافقتكما السلامة ""يقول مساعد السائق وهو يغلق الباب دونه .ظل كلانا ينظر الى الناقلة مبتعدة وفي حمولة عقله مخاوف من ان نسرق او نقتل . سرنا يحدونا الامل في الوصول الى القرية دون خسائر ؛ عسى ان نجد من أهلها من يرشدنا الى مقصدنا: "المدرسة" .كان المساء، وفصل الخريف يطرق باب الطبيعة في تلك البقاع. مشينا والتعب والحيرة تاخذ من اجسادنا واذهاننا مواضع ومواضيع .بعد سير مرهق لبضع كيلومترات ،سمعنا أزيز محرك عربة قادمة خلفنا في الاتجاه الذي كنا نسلكه .انتظرنا لدقائق معدودات واقفين،فاذا هي ناقلة تربط مدينة العيون بتلك القرية المجهولة .توقفت عند أقدامنا . فُتحت الباب الخلفية في وجهنا .أَذِن لنا مساعد السائق بالركوب فركبنا. سارت بنا تطوي بقية المسافة طيا ؛ثم ،ها هي تنفتح على قرية

يغطيها شجر كثيف مخضر .توارت عنا القرية لثوان قليلة عند منعطف قصير قبل ان تظهر من جديد باشجارها النضرة ، وبنايات لا يبدو منها سوى ما ظهر ،وطريق تستطيل حتى باب المدرسة. اليوم سيكتشف تِيمَحْ مقر عمله الجديد .سيعلم كل شيء عن الفرعيات المدرسية البعيدة بُعد الشمس عن الأرض كما كان يراها يومها .نزلا على أرضية المكان وسارا لبضع امتار نزولا حتى بلغا البناية .بناية المدرسة .كان اول ما اثار انتباهه اليها هي، بابها الكبيرة .باب انتقلت بخياله بعيدا الى صور الأبواب التي كانت تحرس قريته" ايش" على الحدود. اقتربا منها .بدت قبالتهما شاهقة امام ضآلة جسميهما كأنها طود عظيم .دقا عليها دقا خفيفا محترما بادئ الامر ؛ثم صار الطرق قويا أوجع الكفين . رغبا جدا في ان يفتح احدهم فيجيبهم عن سوال كان يشغل الذهن في ذلك النهار الطويل""أين سأبدأ عملي كمدرس جديد؟" ها هي الرعود القادمة نحو القرية قد شرعت تزين المساء بدندنتها القوية.يخترق البرق تلك السحب المسودة الزاحفة من الغرب .تضفي على المكان نبرة الخوف من القادم المجهول .بعد لحظة ،فتحت الباب بصعوبة على رجل مسن طاعن في الكبر ،طويل القامة ذي لحية بيضاء .كان الرجل فارع الطول بحق .شيخ كبير كأنه قادم من الزمن السحيق .امتلأ وجهه خطوطا عريضة رسمتها السنون بأنامل لا ترحم.حفرت فأس العمر في تجاويف عينه بئرين عميقين يغطيهما حاجبين كثيفي الشعر ابيضتتخلله

شعيرات تميل الى الحمرة.تقدمنا نحوه نساله "السلام عليكم ،من فضلك ،هل لنا أن ندخل لمعاينة المدرسة ونلتقي بالسيد المدير؟ أجاب بلطف شديد كمن يخاطب ابناء له """هذه مدرسة مستكمر ؛انها مجموعة مدرسية .توجد فرعيات تابعة لها في تلك الجبال .المدير لم يحضر بعد ."سي أحمد رجل طيب ،انه يكن بوجدة.عودا غدا "صار يشير الى ذلك الجبل البعيد القابع هناك في الأفق الممتد.ما ان ذكر الجبل ،حتى تبادر الى ذهني انني زائره .فانا مدرس جديد ، ولن يسمح لي من سبقني من المدرسين بالعمل في المركزية أو في الفرعيات القريبة .انتابني اول الامر وانا انظر الى شفاه ذلك الشيخ شعور لم استطع ال أتبين معناه ،لكنني تناسيت الامر وبادرته أقول ""شكرا سيدي الحارس ، جزاك الله عنا خيرا ""ههمنا بالمغادرة فاذا هو يقول ""لن تجدوا وسيلة نقل للعودة الى المدينة ،ولن تجدا من يضيفكما "" اتفقنا – والليل يحل خطوة بعد أخرى، يسدل ظلامه كأنه ستارة مسرح عند نهاية العرض — اتفقنا على البحث عن رغيف خبز نسد به رمق الساعات التي امضيناها على الطريق ،مشينا لامتار قليلة ،سألنا اول من صادفناه امامنا :""نريد ان نشتري طعاما "" لم يجبنا ،تابع طريقه وكما لو أننا لم نسأله .اصبح المكان فارغا موحشا.ازداد فراغا ووحشة،لما اغلق الحارس باب المدرسة .حينها ،شعرنا بأن القرية تلفظنا دون وداع.نظر بعضنا الى الاخر يكاد السخط يقتلنا .ثم عزمنا على مواجهة الخطر.. اقترب صوت الرعود اكثر فأكثر،

صارت السماء تسود مهيلا مهيلا. تنذر بمطر غزير على الارجاء ولا مأوى لنا .عزما على مغادرة القرية والعودة الى وجدة .سرنا على اقدامنا تبعدنا عن القرية امتارا . باتت الاشجارالكثيفة وبعض الدور تختفي ببطء شديد عن انظارنا. بدت الطريق امامنا طويلة مقفرة تنبئ بخطر محدق .صمنا عن أي كلام بيننا لمدة من الوقت.ما كنا نسمع سوى صوت وقع اقدامنا الخافت على تلك الطريق المعبدة .احاط بنا الياس ونحن نلهث صاعدين .كان كل مُنانى قدوم عربة تبدد مخاوفنا وتخرج بنا الى الطريق العام حيث حركة السيارات لا تنقطع.غشينا القنوط والليل يرخي سواده على المكان .استمرت الحال كذلك لدقائق كثيرة .تملك فيها الصمت والخوف والقلق قلبينا وذهنينا .فجأة ،ودون سابق انذار ، نطق مرافقي """اسمع اسمع ، انه صوت محرك. صوت المحرك. اسمع انه صوت محرك صوت المحرك اسمع اسمع ""قالها ،ثم صمتنا ؛لا حراك ؛ربما لكي نسمع معا ونتأكد.انتظرنا ثم انتظرنا والليل بظلامه المخيف يداهمنا ،صارت معالم المكان تختفي يعوضها السواد.أطلت من خلفنا هناك غير بعيد ،انوار جعلتنا نرفع اليدين نريدها ان تتوقف فتُقِلَّنا. داس السائق على مكبس السرعة بعد ان انحرفت به السيارة مخافة ان يدهسنا وهو يلوح بيده. لم نفهم سبب فعله ذلك .توجسنا خيفة من ذلك الفأل وقد اوشكنا نُصدَم .كان ذلك في اذهاننا مؤشرا صريحا على ما ينتظرنا على تلك الطريق في ذلك الليل الزاحف .مشينا لحوالي كيومترين على الطريق

والسكون يلف المكان ويشبعه هدوءا ورهبة.توارت اصوات الرعود خلف منعطفات تجاوزناها .بات الخوف يدب في عقولنا وداخل اجسادنا يكشفه صمتنا معا .بدت الحقائب الصغيرة على ظهرينا ثقيلة وتزداد ثقلا مع مرور الدقائق .لم يكن بها طعام ،بل فوطة ومشط نسرح به شعر العنفوان ،شعر الشباب.مشينا حتى اوشكنا بلوغ مكان يطلق عليه اهله ""بوصدان"" فجأة ، ونحن وسط ذلك الصمت المطبق،عاود صوت المحرك ازيزه يدق مسامعنا.توقفنا ،لكن هذه المرة على جانب الطريق . ابتعدنا قليلا مخافة ان يحاول السائق دهسنا بين انوار سيارته المشعة . توقفت السيارة فجأة ،أصابنا خوف قاتل من توقفها هذا.كانت عقولنا مثقلة بالهواجس السيئة .خفنا ان يكون ممن حكوا عنهم .أن يكون من المجرمين الذين يعترضون مَنْ تحتضنهم تلك الطريق ليلا لسبب من الاسباب.حاولنا الفرار والنجاة بانفسنا مبتعدين نحو الخلاء .انتظر السائق داخل سيارته لدقائق مميتة.كانت الانارة داخلها منعدمة .ما حاول انارتها فيظهر لنا وجهه ،وما حاولنا التقدم صوبها ولو بخطوة واحدة لو لا انه نادانا ""ركبو نزيدكم شوي"""سعينا اليه جريا .ركبنا في المقاعد الخلفية ،لكن السيارة لم تنطلق .علمنا ان الامر يتعلق بسائق احمق يريد سرقتنا او حتى ذبحنا . انتظرنا لثوان كنا مستعدين اثناءه للنزول منها ،لكنه قال "" فليتقدم احدكما للركوب بجانبي " نزلت من مقعدي واخذت مكاني حداءه والخوف يكاد يكشف

خوفي .خاطبني برفق : ""ماذا كنتم تفعلون في القرية ؟"" لم يترك لي صاحبي الفرصة لاجابة بل رد بسرعة :"" نحن معلمان جدد ،جئنا لنتعرف على المدرسة التي سيعمل بها صديقي"""صمت الرجل قليلا ثم قال "" إيهْ، معلمان .تبارك الله .ولكن الا تعلمان ان هذه الطريق مقطوعة ليلا ؟الا تخافان على نفسيكما قطاع الطرق واللصوص ؟"" قلت في هدوء وصوت منخفض :"لم نكن نعرف ، نحن لسنا من هذه المنطقة" "إنها وحوش آدمية حقا تلك التي تجرد من تصطاده ليلا من ماله ثم تقوم بإعطابه""" يقول الرجل بلهجة اهل البلد.""أوقد تقتله ان لم تجد عنده شيئا تسلبه إياه""يضيف الرجل وبصره لا يفارق الطريق امام اعيننا. كان طوال المدة التي ركبناها على متن سيارته يحدثنا عن تلك المناطق الوعرة التي تختفي خلف ذلك الجبل المسمى ""بوخوالي""تحدث عن كرم الناس في تلك القرى النائية .ذكرنا بما يعانونه من قلة ذات اليد بسبب الجفاف الذي كان يضرب آنذاك .شرح لنا مستفيضا ما يحبه هؤلاء وما يكرهونه في الغرباء الذين يحلون بقراهم ،حدثنا عن لهجتهم ،لم يذكر خطرا قد يهدد من عمل هناك ابدا .كنا نستمع اليه منصتين .نجمع من المعلومات كل صغيرة وكبيرة حتى نضعها في الحسبان. ظهرت الاشجارعلى حواف الطريق اشباحا تتوعد ،تنذر بليل عصيب .بدت كثيفة احيانا،وطورا طويلة السيقان .حتما كانت تخفي بين ثنايا المكان لصوصا مُتربصين.بلغنا المنعرج الاخير الذي يفصلنا عن مفترق الطرق.اصبح الان

امر نزولنا من تلك العربة محتوما ان لم نقبل بعرضه"هل ترافقونني الى تاوريرت .سأستضيفكما في بيتي حتى الصباح .مرحبا بكما"يقترح علينا الرجل باشا .اعتذرنا شاكرين كرمه .ففي الغد ،سنزور منطقة ""لمريجة"" .طفقت الانوار تجلي المكان مشعة كثيرة لا تنقطع غير بعيد . انوار العربات من كل الاصناف .وقفنا جانبا .سنبدأ الان برفع ايدينا لعل احدهم ينتبه الينا فيقبل بنقلنا الى وجهتنا. كانت العربات تمر بسرعة في الاتجاهين،استقر الهواء في المكان على هبات لطيفة من نسيم بارد ينبئ بقدوم الخريف.كنا فقط نمشي .نمشي فقط لنصل الى نقطة لم نكن نعلم عنها سوى اننا نريد فيها النجاة .اقتربنا من قنطرة عند منعرج على واد عظيم .رأينا الشجر حولها كثيفا تجليه الأضواء بين حين وحين .هنا ،سيتوقف كل شيء ""خاطبت نفسي هامسا .هنا سيتوقف كل شيء بعد ان يخرج هؤلاء السفلة من تحت هذه القنطرة الكبيرة .هنا مكان تجمعهم .القنطرة تخفيهم عن الأنظار .هنا مكان اعدادهم للخطط.ينقضون على الضحايا المناسبة .ربما يكون عددهم كبيرا .لا شك أن بأيديهم سكاكين حادة وسواطير تشق الرؤوس والعظام في لمح البصر" .ازداد الظلام حلكة ،والليل سوادا ,وازداد وجداننا تعلقا بالحياة اكثر من اي وقت مضى .كانت بعض العربات تحاول دفعنا بعيدا عن الطريق . تقترب منا اكثر .تحاول دهسنا .تسلط علينا انوارا تعمي العيون."""مجرمون هؤلاء السائقون الحمقى""يقول بلقاسم وهو يسب بألوان

الشتم واللعن.مشينا تكشف لنا أضواء العربات الطريق امامنا حتى أطلت من بعيد انوار تلك البناية هناك خلف القنطرة واعدة تلوح من بعيد .سرى في عروقي قليل من امل في النجاة إن كان لنا حظ في تجاوز ذلك المنعرج.مازالت اضواء العربات تجلي الطريق تارة وتخفيه عن ابصارنا اخرى.توقفت عربة فجأة وقال صاحبها ""يمكنني حمل واحد منكما فقط .من منكما سيركب معي ؟""من منا سيركب؟ "تساءلت خائفا "ألم ننطلق معا في الصباح ؟ألم يكن اتفاقنا زيارة مقري عملينا بالتناوب ؟هل سنفترق الان ؟وفي هذا الليل الحالك؟وامام هذا الخطر المحذق؟من منا سيبقى ليواجه ما تخفيه القنطرة ووواديها من خطر؟شكرنا معا صاحب السيارة على كرمه ،ثم تابعنا المسير مرعوبين مترقبين . بلغنا القنطرة دون ان نرى اثرا لبشر .ما من لص وما من قاطع طريق هناك الليلة. .تجاوزناها نحذر ما قد يحدث فجأة .ها هي البناية تتهادى انوارها امامنا جميلة صفراء اللون ساطعة قليلا. في اعلى البناية بدت لنا من بعيد يافطة عليها كتابة لم نتبين حروفها من خلال تلك المسافة .غمرت دواخلنا فرحة لم يفصح احد منا عنها لرفيقه ونحن نتقدم .صارت البناية تقترب منا ببطء .كانت سرعة مرور السيارات تمنعنا من الانتقال الى الجانب الاخر من الطريق. لم يأبه اي سائق لما كنا نرغب فيه فيسمح لنا بالعبور . الانتقال الى الجانب الاخر حيث تأخذ البناية موضعها على مساحة غير بسيطة منه . حاولنا وحاولنا ، اخيرا قررنا المغامرة

. دخلنا الطريق تلوح ايدينا للعربات حتى تبطئ من سرعتها فنمر بسلام .امتلأ المكان بأصوات منبهات العربات .جرينا وجرينا وفي قرارة نفسينا اننا ميتون لا ريب .اخيرا ،ها نحن على الجانب القريب من البناية. ظهرت جميلة ،تتلألأ داخلها اضواء خافتة رغم قوة توهجها .بدت على مقربة من بابها العريضة ظلال شخوص تتحرك بطيئة جيئة وذهابا.من خلال النوافذ المضاءة، كانت ظلال جسوم اخرى جالسة لا تتحرك ،صرنا نقترب ونقترب من االبناية عسى ان نجد بها ملاذا مما نخشاه أو طعاما يشبع جوعنا ويطفئ عطشنا.هي مقهى ومطعم كتب اسم القارة "افريقيا"على يافطة اعلا واجهتها .سلطت عليها انوار تجليها .تقدمنا يراودنا الامل في تبديد ولو قليل من خوفنا .لم نسلم على احد ولم يسلم علينا احد ممن كانوا بالخارج يقفون على الدرج المؤدي الى الداخل . صاروا يرمقوننا بأعين شريرة فقط. ظهرت نظراتهم غريبة تتوعد.

لم ارفع عيناي الى هؤلاء الا تلك النظرة الاولى .تابعنا السير نحو المطعم ، ربما صعدنا درجا او درجين قبل أن نَجِدَنا داخل المبنى الذي كان يبدو لنا قبل قليل مجردة بناية .كانت واسعة ،بها كراسي تحف طاولات مختلفة الحجوم .يجلس اليها اناس انكبوا على كؤوسهم وعلى احاديث يخفت الصوت فيها كلما اقترب احد منهم.كانت الانوار داخلها بسيطة ضعيفة التوهج .كان المكان شبه مظلم . اغلب ما كان بين ايديهم كان براد شاي او بنا .قبالة باب المطعم من الداخل

،تواجدت استدارة على شكل منضدة من خشب أو ربما كانت من بناء على شكل نصف دائرة .يجلس اليها شبان بين ايديهم قطع خبز طويلة ينهشونها بين اسنانهم نهشا.يسهر على خدمتهم رجل بدت سواعده قوية لا يغطيها شي من لباس.تقدمنا نطلب طعاما ،فإذا بالانظار كلها تتجه صوبنا .تحملق فينا كأننا أغراب من كوكب بعيد .اهتزت اركاني لردة الفعل تلك من هؤلاء الذين لا اعرفهم ولا يعرفونني ."نريد طعاما من فضلك""طلبنا من صاحب المطعم بهدوء .غاب عنا الرجل لبضع دقائق ذاب خلالها بين هؤلاء الذين سبقونا في طلب الخدمة منه.تسمرنا في مكاننا ننتظره .لم ينقطع التحديق فينا خلال تلك المدة من الزمن الصعب علينا هناك.صرت اتصفح المكان عسى ان ارى شيئا مما قد يبعث قليلا من طمأنينة في نفسي .لم ار سوى بعضا ممن تحلقوا حول تلك المنضدة يلتهمون ما بين ايديهم بشراسة .ينظر بعضهم نحو الجوانب ويلتفتون خلفهم كمن يخشى ان يدركه احدهم ؛ ظل الاخرون بلا حراك .لا تفارق انظارهم المساحة التي امامهم من تلك المنضدة .قلت في نفسي ""ربما هؤلاء هم اللصوص "" ثم تداركت الامر ونفيت عنهم تلك الصفة.عاد الرجل أخيرا وقال بصوت خشن وعيناه لا تفارقان عيني :"" لدينا خبز وجبن وشاي وبن ؛ ما الذي ترغبان فيه ؟قالها وانصرف . ربما اراد ان يمهلنا وقتا للتفكير او ربما للاختيار من بين ما عرض.خبز وجبن فقط ونحن من لم ندق النعمة من الصباح؟قال مرافقي وهو يلوح

بيده : ""ليس ما يهمنا الآن هو الاكل او الشرب ،بل النجاة مما يخبؤه المكان .لنطلب اي شيء ثم لننصرف" سننصرف ؟ لكن الى اين ؟ الى الخلاء ؟ الى مزيد من الليل والظلمة؟ الساعة الان العاشرة ليلا الا دقائق ؛ ها هو صاحب المطعم يعاود المجيء ويسأل: ما ذا اقدم لكما ؟ ثم صار يسرد اثمنة ما عرض علينا بعجالة .فجأة"دحل علينا رهط من الناس اشداء . لم يسلموا ،بل مشوا نحو طاولة قريبة وجلسوا اليها .دق كبيرهم وقد كان يضع عمامة لم أتبين لولنها وسط تلك العتمة،دق على سطح الطاولة دقات متتالية وقعت شديدة على مسامع الحاضرين ؛هلعت لوقعها في نفسي هلعا .استجاب صاحب المطعم دون إبطاء.رايته يسرع الى جمعهم متلهفا كأن به شوق اليهم.""ماذا اقدم لكم يا سادة؟""قالها ولم ينصرف عنهم كما فعل معنا بل انتظر.ظل واقفا بجانب كبيرهم حتى ظننته يخشاهم .كان بين فينة واخرى يمسح على يديه بقطعة قماش بالية كما رأيتها من خلال تلك المسافة التي كانت تفصلنا .تحدث اليه احدهم بضع جمل مفيدة ،اتبعها باخرى من فاحش الكلام .اشمأزت نفسي مما سمعت فقلت لمرافقي """الان فقط اصبحنا في خطر حقيقي .ألسنا كذلك؟""لم يلتفت إليّ ،بل ظل يلتهم ما تبقى من خبز كان بين فكيه.قلت معاودا كلامي ""ربما هؤلاء من المجرمين واللصوص الذين حدثنا عنهم صاحب السيارة "مرسديس" آنِفا ".بلع ما كان في فمه من طعام تكاد قطعة صغيرة منه تخنقه .ربما من خوف حل به

فجأة .التفت إليّ وهمس: ""ما العمل ؟ هل نخرج؟هل نغادر؟ "....كيف نغادر والظلام يخبئ لنا من الشر ما لا نطيق رده ولا نتحمله ؟ الى اين سنغادر ؟الى الخلاء ؟ ربما رغبت كثيرا في قضاء الليلة هناك بما تبقى من مال في جيوبنا .لقد استنزف ذلك الطعام الكثير منه .كان ثمنه باهضا .مضت اكثر من ثلاثين دقيقة بعد العاشرة.تغيرت نظرات صاحب المطعم إلينا بعد ان انهينا طعامنا.اصبحت رغبته في انصرافنا جامحة .وجَدَنَا حملا ثقيلا على المكان و تدفقَ أفواج من الزبناء يركنون عرباتهم غير بعيد .أجبرتنا نظراته على الخروج وقد فهمنا ما يدور في خلده.خرجنا نقتحم الزحمة وتلك الظلمة التي لم نكن نعلم ما تستره.تتبعت خطانا عيون كثيرة حتى غادرنا الباب .لم يتبعنا احد .خَمَّنْت انهم سينتظرون ولوجنا ذلك الفضاء المظلم الشاسع فينقضوا علينا.هناك ،سيمكنهم سلبنا ما لدينا من مال ،او ربما قتلونا دون رحمة ودون ان يتركوا اثرا .تقدمنا نحو الطريق نستوقف العربات المسرعة؛تركنا البناية خلفنا لا نرى منها سوى تلك الانوار الخافتة من خلال نوافذها .ابتعدنا كثيرا وسط الحلكة ولم يفارقنا الخوف ممن نخشى اذاهم .توقفت شاحنتان تملأ ظهريهما قذع مربعة الشكل من التبن.سعينا اليهما جريا ."هل يمكن ان تقلنا الى مدينة وجدة من فضلك؟ قلت مستعطفا ."نحن اثنان "تابعت وابتسامة صفراء تعلو وجهي ."اركب معي وليركب رفيقك على الشاحنة الاخرى"قال الرجل وهو يمسك

المقود بيد واحدة ملتفتا إلي.انفرجت اسارير وجهي فجأة وذهب عني كل الحَزن. كان صوت المحرك قويا ،يطلق بين حين وحين زفرات تتبعها رائحة دخان اسود يزيد المكان ظلمة.توجهت ببصري الى الخلف ،كان رفيقي قد اختفى على متن تلك الشاحة العملاقة ,بالكاد تبينت جسده في مقعده بجانب السائق .ربما دخلا للتو في حوار ستخيط الطريق الى وجدة تفاصيله وتحرك مفاصله.صعدت وسلمت .اخذت موضعي من القمرة .""ألم يعترض احد سبيلكما ؟ما الذي جاء بكما الى هذا المكان الموحش في هذا الليل؟""هكذا أراد السائق ان يبدأ حديثه معي بعد ان رد التحية.لقد اعتاد على مثل هذه اللقاءات مع من يقلهم يوميا في طريقه على الاتجاهين."نحن معلمان. تخرجنا هذه السنة. وتم تعييننا .وقد جئنا نتعرف على المدرسة التي ساعمل بها ""قلت مجيبا على تساؤلاته.بدأ بيننا حوار كانت الاسئلة فيه كثيرة .بتُّ اجيبه مستفيضا تارة، واخرى باقتضاب شديد.تحدث كثيرا عن المعلمين ،خصوصا هؤلاء الذين كانوا يركبون عربته إذا صادفهم على تلك الطريق؛ممن انقطعت بهم السبل أو تأخروا في مقرات عملهم النائية البعيدة، هناك خلف الجبال ،او بين التلال الوعرة كما وصف.كنت استمع اليه بشغف شديد .ظهر احترامه المعلمين ومهنتهم جليا في حديثه. "المعلمون"" كما اسهب في شرحه ""هم الفقهاء والعلماء والقضاة والجنود .طبعا عند الناس في تلك المناطق المنعزلة "".صرت وحديثه أرسم صورة تلك الشخصية التي سأكونها ،والتي صار

يبنيها داخل وجداني صورة صورة ،وموقفا موقفا.كانت نصائحه ووصاياه عميقة الابعاد اختصر فيها تجربة حياة طويلة مع الناس. نصائح تبعث الخوف في كياني تارة من حجم المسؤولية على عاتقي بعد تسلم اول فوج من التلاميذ ،وأول دفعة أجر من راتبي على تلك الحال؛وطورا يسري بها في جسدي فخار ورفعة جراء قيمة الرسالة التي سأبلغها لابناء الوطن في تلك المناطق الوعرة تضاريسا ولسانا وطباعا .عقدت النية وقناعتي من خلال حديثه على ان أصير معلما بالمواصفات التي وضعها بين يدي، مسؤولا حذرا انسانا.كان في أحيان كثيرة يربت على ركبتي تنبيها لي حتى استمع ولا اشرد.انتصفت بنا الطريق ،بدت من بعيد اضواء زرقاء تشير للسائق بالتوقف.ركن عربته الكبيرة إلى اليمين .فتح زجاج نافذته .تحدث مع احدهم بضع كلمات .كان صوت محرك الشاحنة يمتع سمعي بضجيجه الراقص.صارت العربة تهتز وهدير المحرك كانه طبل فنان في سهرة صاخبة.تفحص الدركي الجانب الخلفي من الشاحنة اضواءه.تفحص أوراق الشاحنة قبل ان يسلمها للسائق و يسمح لنا بالمغادرة .سلم السائق وشكر الرجل، ثم اقلع بشاحنته يدخل الطريق العامة .اطلق السائق العنان لحديث جديد بعد هذا التوقف القصير.لم يعد الحديث عن المعلمين وعالمهم المجنون هذه المرة،بل تجاوزه الى حكايات وروايات يقدمها بين يديه هؤلاء الذين ينقلهم يوميا على متن شاحنته من الشبان والراشدين.كانوا يحدثونه عن الجفاف .عن قطاع الطرق

واللصوص ؛بل حتى عن زوجاتهم احيانا ؟عن مشاكلهم العائلية .عن السحر. عن كل المواضيع المثيرة التي لا تخطر على بال احد.""حدثه احدهم ان زوجته كانت مفلسة .توقف عند هذه الكلمة قليلا وقد أحس نوعا من الدهشة على وجهي شعورا .ابتسم وتابع يقول " لا تفهمني غلطا.ليس بالمعنى الذي نتداوله في حديثنا اليومي .إنها تقتسم مؤونة الاسرة مع اسرة ابيها .تحمل نصفها او اكثر لتمد لها يد العون ، كما حكت ذلك لزوجها بعد فوات الاوان .كان يضطر الى مضاعفة نفقة كل شهر يظن ان ذلك يستهلك في بيته .كان يغفل ما يحدث تماما . ضحك قليلا وقال " عندما اكتشف الامر ،فرح كثيرا ،لكنه غير من قواعد اللعبة .صار يشتري ما تحتاجه الاسرة الصغيرة لذلك اليوم فقط ، فكان ان طلبت منه العودة الى ما كان عليه او يطلقها .لم يكمل الحكاية .كدت اسأله إن طلقها ، ،كنت اود ان اعرف نهاية القصة ،لكن السائق بادرني يسأل : هل انت متزوج ؟"" ابتسمت في وجه سؤاله؛ لم اكن متزوجا حينها.ولم تكن تخطر على بالي فكرة الزواج البتة.كنت في مقتبل الشباب ،عشريني .كانت السنة الاولى لي كموظف عمومي في مهنة التربية والتعليم كما كان مرسوما عنوانها على كتاب ربط السابق باللاحق اذا كنت اتذكر العنوان جيدا لصاحبه عبدالباقي داود ان لم تخني الذاكرة.عم صمت كئيب للحظة ما داخل المقصورة التي جمعتني بهذا الرجل الغريب ذي الثقافة الواسعة .وددت ليلتها لو لم تتوقف هذه الرحلة فاستمع الى

المزيد من الحكايات الماتعة .كرهت ان نصل سريعا الى وجهتنا .كان رجلا بسيطا ،ربما بدا طويل القامة من خلال جلسته وسط الظلام الذي كانت تخترقه بين الحين والحين اضواء العربات المقبلة على الاتجاه المعاكس.كان يلتفت الي حينا ،يتفقدني ،وعلى طول الطريق لم تفارق عيناه ذلك الفضاء الممتد امامه ابدا .قال جادا مرة اخرى : اياك ان ترتبط باحداهن ،احذر ان تغريك احداهن فتتزوج .لم اكن افهم يومها لماذا بنصحني بهذا .غاب علي انه من اهل التجربة في الميدان .قلت له فقط : لا لن افعلها وصمتنا" ..... استوقفتنا من جديد دورية للدرك الملكي كانت ترابط على مسافة من مكان يطلق عليه اهله 'النعينة' تفحص الرجلان حمولة العربة واوراق السائق والاضواء الخلفية لها .خلال هذا التفتيش الذي استغرق هذه المرة وقتا طويلا ،كان السائق يلزم مكانه متسمرا ينتظر ،يجيب على اسئلة الدركيين بهدوء وتبسم كنت احسه من خلال ما نطق من كلمات .سمحا لنا بالعبور فانطلقت بنا الشاحنة تسرع .قلت له متسائلا ،لقد اخذت الدورية وقتا طويلا الم تلاحظ ذلك ؟ لم يرد على تخميني الا بعد تفكير .''هذا من اجل امن البلاد ،الاعداء يتربصون بنا .والليل وهذه الحمولات الكبيرة غالبا ما تكون مرتعا لزعزعة امننا .”قال الرجل متجهما .كنت اعرف الاعداء المتربصين ،لكنني تعمدت استفساره اكثر ””هل تقصد اللصوص وقطاع الطرق ؟نظر الي نظرة سريعة وقال بصوت قوي ””لا ،اقصد الاخرين ،الخطر

الخارجي""اه لقد ىفهمت""""كنت اعلم ان ثقافته واسعة ،ليس بكونه متعلما او قد حصل على شواهد دراسية ،فهو مجرد سائق غادر المدرسة لظروف قاهرة منذ الابتدائي كما اخبرني بذلك وانا اقدم له نفسي كمعلم ،بل بحكم من يلتقيهم يوميا وهو ينقل الرمل المخصص للبناء من مكان سماه "الحصحاص""من اشخاص تختلف ظروفهم وطبيعة وظائفهم ،فهو ينقل المعلم والمهندس والجندي والطبيب والبناء والراعي وغيرهم ممن تضطرهم الطريق الى انتظار من يوصلهم .يفهم في علوم السياسة حتى وان لم يمارسها او يدخل كلية من كليات علومها .وهو يفهم في الاقتصاد ،في ضرورة التوفير والحذر مما قد تحمله الايام .وهو الفقيه ،يفتي بنصائحة في كل شؤون العباد الدينية ،ورايته معلما يفهم في علوم التربية وعلم النفس ،وقرات في شخصيته كل الشخصيات الانسانية التي جمعها كلها في ذلك الراس الذي يخفيه تحت طاقية صوفية سوداء اللون""""" .كنا على بعد عشرين كيلومترا على مدينة وجدة حين اطلق لسانه متحدثا بحكايات اخرى ،كان الظلام يغطي الجوانب التي كنت احاول ان اتبين ما بها من اشياء.كنت احاول بشكل واضح ان اتبين الخطر الذي يملأها .ان ارى احد اللصوص او قطاع الطرق او احد المجرمين يلوح بساطور او سكين طويلة عريضة نيتها الذبح والطعن .لم استطع ان افرغ عقلي ومخيلتي من حمولتهما السوداء .ترك في نفسي سائق السيارة التي اقلتنا من القرية اثرا واضحا ، خوفا وترقبا لكل سوء ومكروه .كانت اضواء

الشاحنة تتغير وفق الظروف .كان بعضهم يسلط ضوء عربته الابيض القوي على اعيننا دون مراعاة لما قد يسببه ذلك من خطر علينا او عليه او على باقي العربات المسرعة على تلك الطريق .لم يكن هؤلاء اقل جرما من حملة السكاكين او اللصوص .كان السائق يتلفظ بكلمات نابية لا يمكن سماعها كلما عرضه احدهم لهذا الموقف . كان رجلا طيبا ،متخلقا كما بدا ذلك من حديثه معي ،لكن الاخرين امثاله في الاتجاه المعاكس كانوا يعاكسونه بهذه الافعال الخبيثة كما كان يصفها.كثيرا ما ابطأ سرعة شاحنته تفاديا لاي انزلاق في المنحدرات جانب الطريق. ليلا وانت على تلك الحال ، ترى العجب العجاب من الظلام الذي يسمح لك ان تتخيل كل شيء ،كل الصور المرعبة التي تتزين بها حياتك وتعطيها قيمة .لولاها ما كان للحياة طعم .صور الخوف هي ما يعطينا الاحساس بالامان والبحث عنه .على تلك الطريق ان سمحت لك الظروف بارتيادها كل ليلة ،تسمع الاغرب فالاغرب من الاحداث والحكايات الجميلة قبحا وبشاعة .يمتزج في اعماقي صوت المحرك،صوت ذلك الرجل ، باضواء الشاحنة ،باصوات الخطر المحدق بنا ،بالصور الذهنية التي تتشكل على اثر ذلك الخليط من الاحاسيس والاشياء ،كنت ارهف سمعي لاستزيد منها فائدة .حين بدت لنا اضواء مدينة وجدة تتراقص كالعرائس في حفل زفاف صاخب ، تمنيت لو اذهب معه الى ابعد نقطة فلا تتوقف شاحنته ابدا .حين دارت بنا الشاحنة ودارت عبر شوارع المدينة

الواسعة الفارغة ليلتها ، لم اكن قط احسب انني سالتقي بمباركة في ذلك الفندق القديم ، مباركة التي ستروي حكايات فاق خيالها ما سمعته عبر الطريق .نزلنا من الشاحنتين والتقينا بعد فراق طويل ،اتفقنا والنعاس يغالبنا ان نبحث عن فندق نبيت فيه حتى الصباح .كان الوقت متأخرا قليلا"" .. كان الوقت متاخرا ،والفنادق كانت تغلق ابوابها ابتداء من منتصف الليل .دققنا ابواب العديد منها ،لكننا لم نتمكن من اقناع اصحابها بفتحها امامنا .قصدنا احدى المقاهي التي كان دوامها يستمر حتى الصباح .كانت اسفل مقر حزب الاستقلال ،تجاورها محطة الناقلات الى كل الاتجاهات ،كانت بابها العريضة الفولاذية مغلقة ساعتها،امام المقهى كانت استدارة عبارة عن نافورة ماء تؤدي احدى اتجاهتها الى سينما الميراج .جلسنا الى طاولة اخذت لها موضعا على الطوار ،طلبنا قهوة من النادل فجاءنا بها بعد لحظات قليلة دون انتظار ،شربنا اول كأس على امتداد ساعة من الزمن من وصولنا .صار النادل بعدها كثير الحركة ، يمر من امامنا باستمرار ،كنا نفهم ان لسان حاله يقول :" قهوة اخرى او غادرا "" كنا نفهم ذلك وهو يكرر المسح على الطاولة التي كنانجلس اليها"""" . لم اكن اقدر على قهر النعاس الذي صار يهاجم عقلي وجوارحي .كنت بين حين وحين اضع يداي معا على الطاولة ثم اضع عليها راسي واغمض عيناي مستسلما للنوم .ما كانت تمر دقيقة على ذلك الحال وذلك الوضع حتى استفيق على صوت مرافقي يقول

:""هل نمت؟" ربما كان يتعمد ذلك خوفا من هؤلاء الذين كانوا يملأون ذلك المقهى،فقد يكون من بينهم لصوص او حشاشين وسكارى .قد يتجرأ احدهم على افساد الليل علينا بصراخه او حتى بكأس من زجاج او ابريق قد يقذفه بقوة فيصيب احدنا.كنا نتحدث قليلا ونصمت لوقت طويل.طلبنا قهوة بعد اخرى تفاديا لازعاج النادل فيطردنا .هناك غير بعيد من تلك النافورة امام ابواب احدى الحانات بدا متسولون ،متشردون يفترشون العراء نائمين .ملابس رثة كانت تظهر من بعيد تكشفها احدى اضواء الشارع جلية ,ناموا ولا غطاء يستر اجسادهم كما هي العادة عند اي ساعة نوم.ويمر اخر مترنحا هناك وقد اخذه السكر الى عوالم غامضة ينتشي فيها سعادة وحبورا .كنت اسمع صوته من مكاني ذاك ..... """من بعيد ،من اماكن متفرقة من المدينة ،انطلق صوت المآذن بالاذان يملا السماء والارجاء,كان موقفا رائعا ،مخيفا